اختلال التوازن الدولي

يقول رجال السياسة أن الدول الاوربية منقسمة اقساماً متوازناً متعادلاً وهذا التوازن هو الذي يمنعها من ان تثير الحروب بعضها على بعض ولولا ذلك لتسلط القوي منها على غيره واصبحت الممالك كلها لدولة واحدة . ولا ينكر ان في انقسام الدول الكبرى الحاضر شيئاً من التوازن ومن المحتمل ان له يداً في منعها من اثارة الحرب بعضها على بعض ولكننا نرجح ان الموجب الاكبر لمنعها من اثارة الحروب هو كثرة مضار الحروب سواء خرجت الدول منها مغلوبة او غالبة وشدة ما تلاقيه من معارضة الذين لا مصلحة لهم في اثارتها . ومع ذلك يحسن بالقارئ الشرقي ان يقف على ما يقوله الاوربيون في التوازن الدولي وما اصابهُ من الاختلال بخروج الدولة العثمانية من اوربا . وقد وقفنا الآن على مقالة مسهبة في هذا الموضوع لكاتب شهير من الكتاب الذين اعتادوا البحث في المواضيع السياسية العمومية ولهم فيها كتب ممتعة وهو السر بارکر نشرها في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر فالتقطفنا منها ما يأتي

قال ان السياسة التي ترمي الى توازن الدول قديمة جداً ابتدأت بابتداء العمران والغرض منها ان لا تزيد قوة دولة من الدول حتى تسود على سائر دول الارض . وقد قال الملك فردرك الكبير ملك بروسيا «ان السبب الاكبر في حفظ السلم الاوربي هو توازن قوات الدول الذي يمنع الدولة القوية من اجتياح غيرها لان الدول الضعيفة تتفق عليها وتمنع ضررها . فاذا تلاشى هذا التوازن خيف من حدوث ثورة عامة وقيام دولة قوية مشيعة على انقاض الدول التي ليس في كلٍّ منها من المنعة ما يكفيها لمقاومة الدولة القوية ولا فيها كلها من الحزم ما يجعلها تتحد معاً على مقاومة خصمها. فلو اتحدت مصر وسورية ومكدونية في زمن دولة الرومان ما استطاعت تلك الدولة ان تتغلب عليهن . نعم لو اتحدن على اسلوب معقول وقاومن خصمهن لخجلن من قيود الاستعباد التي رسفن بها بعد تسلط الرومان عليهن »

ولقد نشبت الحروب الكبرى في اوربا من طمع بعض ملوكها وطموح انظارهم الى السيادة على غيرهم مثل كارلس الاول وفيليبوس الثاني ولويس الرابع عشر ونبوليون الاول

ووقع هذا التوازن في اوربا حديثاً لما تحالفت المانيا والنمسا وايطاليا من جهة وفرنسا وروسيا من اخرى فان المحالفة الثنائية كانت موازنة للمحالفة الثلاثية وبقيت انكلترا على الحياد

لان ليس لها مصلحة كبيرة في قارة اوربا تخشى عليها من اختلال التوازن . ولكن المانيا سعت الى مفاضبة انكلترا فاحرجتها واضطرتها الى ترك الحياد والانضمام الى المحالفة الثنائية ولو من سبيل الاتفاق وكانت فاتحة اعمالها هذه ارسالها التلغراف الى كروجر سنة ١٨٩٦ في بداءة حرب الترنسڤال ثم جعلت تزيد قوتها البحرية قاصدة ان تلحق بانكلترا وتناظرها فقالت في اللائحة البحرية التي قدمتها سنة ١٩٠٠ الى مجلس نوابها طالبة بها مبالغ كبيرة لانشاء البوارج « ان المانيا تحتاج الى عمارة قوية حتى اذا حاربت اقوى الدول البحرية عرّضت تفوّق تلك الدولة للخطر » . ومن ثمّ اخذت المانيا تزيد الاموال التي تنفقها على انشاء السفن الحربية سنة بعد سنة كما ترى في الجدول التالي وقد ذكر فيه ما انفقتهُ انكلترا على انشاء سفنها الحربية وما انفقتهُ المانيا وذلك من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩١٢

	بريطانيا	المانيا
١٩٠٠	٩٧٨٨١٤٦ جنيه	٣٤٠١٩٠٧ جنيه
١٩٠١	١٠٤٢٠٢٥٦ «	٤٩٢١٠٣٦ «
١٩٠٢	١٠٤٣٦٥٢٠ «	٥٠٣٩٧٢٥ «
١٩٠٣	١١٤٧٣٠٣٠ «	٤٣٨٨٧٤٨ «
١٩٠٤	١٣٥٠٨١٧٦ «	٤٣٧٥٤٨٩ «
١٩٠٥	١١٢٩١٠٠٢ «	٤٧٢٠٢٠٦ «
١٩٠٦	١٠٨٥٩٥٠٠ «	٥١٦٧٣١٩ «
١٩٠٧	٩٢٢٧٠٠٠ «	٥٩١٠٩٥٩ «
١٩٠٨	٨٦٦٠٣٠٢ «	٧٧٩٥٤٩٩ «
١٩٠٩	١١٢٢٧١٩٤ «	١٠١٧٧٠٦٣ «
١٩١٠	١٣٢٧٩٨٣٠ «	١٣٩٢٨٥٦ «
١٩١١	١٥٠٦٣٨٧٧ «	١٢٣٥٠٢٦٩ «
...	...	١١٧٠٧٠٦٠ «

اي ان ما انفقتهُ المانيا على انشاء سفنها الحربية كان نحو ثلاثة ملايين ونصف من الجنيهات سنة ١٩٠٠ فصار اثني عشر مليوناً سنة ١٩١٢ فزاد اكثر من ثمانية ملايين من الجنيهات واما ما انفقتهُ انكلترا فلم يزد الاّ نحو اربعة ملايين . والاول زاد ٢٤٧ في المئة واما الثاني فزاد ٤٣ فقط في المئة

فاهتمام المانيا هذا ومفاضبتها لانكلترا من وقت الى آخر اضطرَّ انكلترا الى موافقة الحالفة الثنائية ولاسيَّا بعدما دارت الدائرة على روسيا في حرب اليابان فاصبحت الحالفة الثنائية اضعف من الحالفة الثلاثية ولو بحراً فتم الاتفاق بين انكلترا والحالفة الثنائية سنة ١٩٠٧ وعاد التوازن الدولي الى مقامه الاول

الاَّ ان التحالف الثلاثي لم يكن ثلاثيًّا فقط بل كان رباعيًّا او خماسيًّا لان المانيا كانت تعتمد على صداقة تركيا ورومانيا وهي واثقة انهما تنصران الاتحاد الثلاثي اذا نشبت حرب اوربية فساعدت تركيا بالمال والرجال والاسلحة لهذه الغاية وارسلت هي والنمسا وايطاليا اقدر رجالهنَّ الى عاصمة رومانيا سفراء ليحفظوا الالفة بينها و بين الحالفة الثلاثية . ولما كان امبراطور الالمان في دمشق سنة ١٨٩٩ قال في الوليمة التي اولمت لهُ هناك انهُ هو «الصديق الدائم لسلطان آل عثمان ولكل الذين يعترفون بخلافته عليهم» . وكانت المانيا تهتم بتقوية تركيا لكي تستعين بها على مقاومة انكلترا وبها وبرومانيا على مقاومة روسيا . ولقد قال الجنرال فون برنهاردي وهو من امهر قواد الالمان في الامور الحربية وافدرهم في الكتابات المتعلقة بها في كتابهِ الذي الفهُ حديثًا «ان علاقة المانيا بتركيا ورومانيا لازمة لها جدًّا لانهما قادرتان على مقاومة روسيا وفضلاً عن ذلك فان تركيا هي الدولة الوحيدة القادرة على الاضرار بانكلترا لانها تستطيع ان تصل الى ترعة السويس وهي العرق الحساس والنقطة الحيوية في جسم بريطانيا» . وقال في كتاب آخر «ان تركيا لازمة جدًّا لالمانيا وكان الواجب على المانيا ان تدخلها في التحالف الثلاثي وتمنع الحرب الايطالية لانها هي الدولة الوحيدة التي يمكنها ان تتهدَّد مركز الانكليز في مصر وطريقهم المختصرة الى الهند لذلك يجب علينا ان لا ندخر وسعاً في ضم تركيا الى الحالفة الثلاثية استعداداً لحاربة انكلترا او روسيا»

وقد انشأت المانيا سكة بغداد وغرضها الاكبر منها الاستعانة بتركيا على حرب انكلترا. قال الدكتور رود باخ الرحالة الكبير في كتابهِ الذي نشرهُ سنة ١٩١١ «ان فوز المانيا على انكلترا في الحرب لا يكون بالهجوم عليها من البحر الشمالي بل باخذ مصر منها . فانها اذا فقدت مصر فقدت سلطتها على ترعة السويس وطريقها الى الهند والشرق الاقصى ومن المرجح ايضاً ان فقدها لمصر يجعلها في خطر من ان تفقد املاكها في اواسط افريقية وشرقها. وتقلب الدولة العثمانية على مصر يعيث بسلطة انكلترا على ستين مليوناً من رعاياها المسلمين في الهند ويجعل موقفها حرجاً في ايران وافغانستان . ولذلك يجب ان يقوّى الجيش العثماني

ويزاد وان تساعد تركيا بالمال فانها اذا زادت قوة زاد الخوف منها على انكلترا واذا وعدنا تركيا باسترجاع مصر سهلت عليها محالفتنا على انكلترا »

وكثيرون من مشاهير الكتّاب الالمان جروا هذا المجرى في ما كتبوه عن تركيا وروسيا لالمانيا ولكن السياسة الالمان تركوا ايطاليا تعتدي على املاك تركيا فكانت نتيجة اعتدائها ان ثارت الخواطر في تركيا ووقع الاضطراب في سياستها فنهضت حكومات البلقان وشهرت الحرب عليها. وقد وقفت المانيا والنمسا وقوف المتفرج لانهما اعتقدتا ان الفوز سيكون للجيوش العثمانية حتماً فتخرج تركيا ظافرة من هذه الحرب ويقوى مركزها ومركز رومانيا ويكون الفوز للمحالفة الثلاثية . ولكن جاء الامر على غير ما قدّرتا فخسرت تركيا املاكها في اوربا واستعزت الدول الصغيرة التي تقول بكلمة روسيا وتظهر العداء لرومانيا والنمسا لاسيما وان في النمسا ٢٥ مليوناً من السلاف وخمسة ملايين ونصف مليون منهم صربيون مجاورون لاخوانهم اهالي الصرب

فلا شبهة اذاً ان ما حلّ بتركيا اضعف المحالفة الثلاثية من وجهين فانهُ منع مساعدتها لالمانيا في مناوأة انكلترا وجعل دول البلقان بمأمن من تركيا فصارت هذه الدول تستطيع ان تجند روسيا بمليون من الجنود اذا اقتضت الحال بل ان صربيا وحدها تستطيع ان تمدّ نصف مليون من الجنود واذا نشبت الحرب بين روسيا والنمسا فالجنود الصربية توقع بالنمسا ضرراً لا يقدر وتهدد عاصمتها

ثم ان فوز حكومات البلقان في هذه الحرب غيّر موقف رومانيا والمرجح انها ستضطر بعد الآن ان تعتمد على روسيا لا على النمسا لاسيما وان في بلاد النمسا ثلاثة ملايين ونصف مليون من الشعب الروماني وهم يشكون مرّ الشكوى من معاملة النمسويين لهم ويودون الانضمام الى رومانيا . واهالي رومانيا يشددون عزائمهم على ذلك

وعليهِ فقد اضاعت المحالفة الثلاثية صداقة تركيا ورومانيا واكتسبت عداوة دول البلقان ولاسيما بما فعلتهُ النمسا مع الصرب والجبل الاسود . وقد صرّحت بذلك الجريدة «جرمانيا» لسان حال حزب الوسط الالماني حيث قالت « لقد قلنا تكراراً ان ظفر حكومات البلقان هو ظفر لروسيا فاذا نشبت الحرب الاوربية قام الاتفاق الثلاثي على المحالفة الثلاثية وانضمت اليهِ حكومات البلقان . ولقد كنا حتى وقت قريب نحسب انهُ يجب علينا ان نتأهب لمحاربة انكلترا اما الان فتغيرت الحال في الشهور الاخيرة وصار علينا ان نتأهب لمحاربة روسيا

وتطورت المسألة الشرقية في طور آخر فصارت عبارة عن مناظرة بين الشعب الالماني والشعب السلافي »

وحاولت المانيا اخيراً ان تضم اسبانيا على المحالفة الثلاثية ولكن الدلائل تدل على انها ستفشل في ذلك وتنضم اسبانيا الى الاتفاق الثلاثي

وقد اتيح لي منذ سنة من الزمان ان اكتب في هذه المجلة عن السياسة التي اتبعتها المانيا بعد بسمارك اذ اهملت قوتها البرية واهتمت بقوتها البحرية لكي تناظر انكلترا فاضطرت انكلترا الى تركها والانحياز الى فرنسا وروسيا واضعفت الاتحاد الثلاثي لانهُ ما من دولة تستطيع ان تتوسع في قوتها البحرية الا اذا كانت آمنة برًّا كأن تكون في جزيرة مثل بريطانيا واليابان او تكون في بلادها بعيدة عن كل عدو مزاحم كالولايات المتحدة الاميركية . اما المانيا فلها ثلاث جارات قوية اثنتان منها فرنسا وروسيا ليستا على صداقة معها ولا تستطيع ان تعتمد على مساعدة الجارة الثالثة اي النمسا . وقد نبهها بسمارك الى ذلك في مذكراتهِ وحذَّرها منهُ . وعليهِ فالمانيا في اشد الحاجة الى حماية نفسها برًّا لا الى التوسع بحراً ومصلحتها الكبرى في البر لا في البحر . اما في فانفقت النفقات الطائلة على بحريتها وضيقت على جيوشها البرية . والنظام الالماني يقضي بحمل السلاح على كل بالغ وقد كان عدد سكان المانيا ٥٦ ٣٦٧ ٨٧٨ سنة ١٩٠٠ فصاروا ٦٤ ٨٩٦ ٨٨١ سنة ١٩١٠ اي انهم زادوا نحو ٨ ٥٠٠ ٠٠٠ والقاعدة المتبعة في المانيا ان يتألف جيشها وقت السلم من واحد وعشر في المئة من السكان وقد زاد السكان في عشر سنوات ٨ ٥٠٠ ٠٠٠ كما تقدم فكان الواجب ان يزيد عدد الجيش الالماني ٩٣ ٠٠٠ ولكنهُ لم يزد سوى ١٨ ٠٠٠ او نحو خمس الزيادة اللازمة

وقد فطنت المانيا الى ذلك الآن واهتمت بزيادة جيشها البري زيادة كبيرة ستكلفها في السنوات الخمس التالية مئة مليون جنيه . ولما طلبت ذلك قدَّمت لهُ مقدمة قالت فيها « ان حوادث البلقان غيرت التوازن الدولي فاذا نشبت حرب اوربية فقد تضطر المانيا الى مناوأة دول كثيرة لاتساع تخومها ولان هذه التخوم ليس فيها ما يحميها طبعاً ولذلك تضطر ان تقوي جيشنا على ما يسمح بهِ تعداد شعبنا فان قوة الجيش لم تزد على نسبة زيادة السكان واهمل كثيرون من الرجال التمرن على حمل السلاح » . ومرادها الآن ان تزيد عدد جيشها ٦٣ ٠٠٠ كل سنة فتبلغ الزيادة نحو مليون نفس لانها تستدعي للحرب مقتدري تسع عشرة سنة

وقوة الدول الآن تتوقف على عدد جنودها المدربين على الحرب . وعدد هؤلاء يتوقف على عدد شعبها ولذلك فالشعب الالماني لا يكفي لاعادة المانيا الى المقام الذي كانت فيهِ بين

الدول البرية لانهُ ليس اكثر من ٦٧ مليوناً وزيادتهُ السنوية ليست اكثر من ٨٠٠ الف نفس وعدد شعب ايطاليا ٣٥ مليوناً وزيادتهُ السنوية ٢٠٠ الف ومجموع شعوب المحالفة الثلاثة ١٥٢ مليوناً وزيادتهم السنوية ١٤٠٠٠٠٠ نفس. ولكن روسيا وحدها فيها ١٧٠ مليوناً من النفوس وزيادتهم السنوية تبلغ ٣٠٠٠٠٠٠ فاذا بني تجنيد الجنود وتدريبهم للحرب على عدد السكان وزيادتهم السنوية فموقف فرنسا وروسيا اصلح من موقف المحالفة الثلاثية. واذا نظرنا الى حالة الجيش الروسي والجيش الفرنسوي الآن وجدنا انهما ساويان لجيوش المحالفة الثلاثية. واهتمام المانيا بتعزيز جيشها سيقابلهُ اهتمام فرنسا وروسيا بتعزيز جيشيهما وتبقى انكلترا لترجيح كفة الميزان في جهة المحالفة الثنائية. واذا اضيفت اليها دول البلقان رجحت كفتها رجحاناً كبيراً. قام بسمارك بجعل المحالفة الثلاثية اعز من حبهة الاسد وجاء الذين بعدهُ فنقضوا عملهُ واعطوا هذه المنزلة للمحالفة الثنائية لانهم دفعوا انكلترا اليها واضعفوا تركيا وقووا حكومات البلقان

الى هنا تكلم الكاتب على ماضي هذه الدول وحاضرها ثم استطرد الى مستقبلها فاستنتج نتائج كبيرة الشأن لها مساس كبير بالبلدان الشرقية فقال ان الدول تنقسم الآن الى قسمين كبيرين قسم لهُ من البلدان ما يكفيهِ ويزيد طيهِ وقسم بلادهُ ضيقة لا تسعهُ ولا تكفي لمعيشتهِ. ومساحة المسكونة ٥٠٢٥٠٠٠٠٠٠ ميل مربع و ٤٨٥٠٠٠٠٠ ميل منها للقسم الاول اي لدول اوربا واميركا والباقي وهو ١٧٥٠٠٠٠٠ للقسم الثاني اي للصين واليابان ومفاد ذلك ان ٦٠٠ مليون من البشر يستولون الآن على ٩٧ في المئة من المسكونة و ٥٠٠ مليون وهم سكان الصين واليابان لا يستولون الاَّ على ثلاثة اجزاء في المئة من المسكونة. فيبعد عن الظن ان يكونوا راضين بهذه القسمة الضئلى او ان يظلوا راضين بها زمناً طويلاً والشعوب البيضاء تمنعهم حتى من استيطان البلدان القليلة السكان كاستراليا وشمال افريقية

والشعب الانكليزي المستولي الآن على اخصب المعمورة لا تودُّهُ الشعوب الاخرى وهو مهدَّد دائماً من دول اوربا ومن سكان البلدان الخاضعة لهُ في الشرق الاقصى. والمتسلط مكروه على كل حال. والانكليز واخوانهم في الولايات المتحدة يزيدون الآن زيادة مطَّردة ولكن ستمر سنون كثيرة قبلما يصير عددهم مناسباً للبلدان التي يمتلكونها فتمثل بهم وتصير قادرة على حماية نفسها من الشعوب الاوربية والاسيوية ولهم الآن ثلث المعمور واخصبهُ فلا يتيسَّر لهم الاحتفاظ بهِ الاَّ اذا اتحدوا فان عددهم مئة وخمسون مليوناً وهو قليل في جنب عدد سكان اوربا والصين واليابان لانهُ ٩٥٠ مليوناً ولكن سيف الاتحاد قوة. ويسهل اتحاد

الشعب الانكليزي والشعب الاميركي لان لغتهما واحدة وتقاليدهما واحدة وعمرانهما واحد وكل منهما ضروري للآخر واذا اتحدا وانضما الى المحالفة الثلاثية وتيا املاكهما من اعتداء الشعوب الاسيوية واضطرت المحالفة الثلاثية ان تذعن لمشيئتها وتجيبها الى تقليل المعدات الحربية وحفظ السلام في العالم . انتهى

اصول التعليم الحديث

الدور الاجتماعي

ذكرنا في الدور السيكولوجي ان القائمين به اخذوا على عاتقهم ترقية الافراد غير ناظرين الى الجماعات . واما الدور الاجتماعي فاخذ يهتم بترقية الافراد كاعضاء من المجتمع لان ترقية الفرد وحدهُ لا تفيد المجموع الفائدة المطلوبة معاشياً واجتماعياً وسياسياً . و بديهي ان من الافراد يتكون المجتمع فمتى تهذب كل فرد تهذب المجتمع ولذلك جعلت المدارس اهمية كبيرة لانتقاء المواضيع التي تدرس فيها بناية عليها كل تقدم ونجاح يمكن حصولهُ للافراد كاعضاء في المجتمع الانساني . وعليهِ فكل درس يلقى على التلامذة ولا يفيدهم في حياتهم ولا يوسع مداركهم لا فائدة منهُ البتة بل يعد خسارة كبيرة لا يمكن ان تعوض

من يتصفح كتب بستالوتسي وفروبل وهربرت يجد ان الوجهة الاجتماعية كانت ظاهرة فيها غير انهم صرفوا معظم قواهم في ترقية اساليب التعليم وجعلها مفيدة للتلميذ ليتسنى لهُ افادة غيرهِ . وهذا واضح من ان بستالوتسي نفسهُ ضحّى حياتهُ في تعليم الفقراء ليمكنهم ان ينهضوا و يكافحوا في ميدان العالم . وكذلك هربرت فانهُ نظر في تعاليمهِ الى امرين . الاول « الغاية » والثاني « الموضوع » . وعلاقة هذين الامرين في الهيئة الاجتماعية قائمة على الاخلاق الامر الذي تاصل عنهُ في كل كتبهِ لان الرجل اذا كان ذا اخلاق رضية ومحايا حميدة استطاع ان يكيف نفسهُ و يملك ارادتهُ ليسلك في الهيئة الاجتماعية السلوك المستقيم . و بدون ذلك لا يستطيع البقاء لان المحيط الذي يكون فيهِ يفعل بهِ و يكيفهُ بحسب ارادتهِ وكان قصد هربرت ان يُظهر امام التلميذ مظاهر الحياة المختلفة و يبين لهُ ما حدث في الازمنة الماضية وما يمكن حدوثهُ في الازمنة المستقبلة ليقيس المستقبل على الماضي فيجتنب ما يراهُ ضاراً و يتخذ ما يجدهُ مفيداً . ومتى ظهرت الحياة بتمامها يفهم معنى الهيئة الاجتماعية حق الفهم فيكيف نفسهُ للسلوك فيها بحسب ما استفادهُ من المظاهر المختلفة التي تجلت امامهُ .